

من صحابة الرسول

المجموعة الأولى



أبو عبيدة بن الجراح

نافيس محمد عزت

من صحابة الرسول

المجموعة الأولى ٦

أبو عبيدة بن الجراح

بقلم

نانيس محمد عزت

الناشر

مكتبة مصر

سعيد حمودة (الشماري) شركة
شارع كامل صدقي - الفيحة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠

أبو عبيدة بن الجراح

« رَنَا » طِفْلَةٌ صَغِيرَةٌ لَا يُعْجِبُهَا شَيْءٌ
أَبَدًا ، فَهِيَ لَا تَرْضَى بِمَا تُقَدِّمُهُ لَهَا أُمُّهَا مِنْ
الطَّعَامِ ، وَتَتَعَلَّلُ أَيْ تَحْتَجُّ بِأَنَّهَا لَا تَحِبُّهُ .

وَذَاتَ يَوْمٍ قَدِّمَتْ لَهَا أُمُّهَا الْغَدَاءَ ، وَكَانَ
خُضَارًا وَلَحْمًا وَأُرْزَا ، فَقَالَتْ « رَنَا » أَنَا
لَا أَحِبُّ هَذَا الطَّعَامَ .

قَالَتْ أُمُّهَا : أَلَا يُعْجِبُكَ كُلُّ هَذَا ؟ فَإِنْ
كَانَ لَا يُعْجِبُكَ صِنْفٌ فَكُلِّي مِنْ صِنْفٍ آخَرَ .
قَالَتْ « رَنَا » : أَنَا لَا أَحِبُّ كُلَّ هَذِهِ
الْأَصْنَافِ .

قالت أمُّها : ألا تشكرين اللهَ أبداً
يا «رنا» ؟ فأمامك أكثرُ من صنفٍ من
الطَّعام ، ومع ذلك تتذمَّرين : ألم تعلمي
يا «رنا» أن بعضَ أصحابِ الرسولِ صَلَّى
اللهُ عليه وسلَّم ، لم يجدوا في إحدى
الغزواتِ شيئاً يأكلونه . فأكلوا أوراقَ
الشَّجر ؟

قالت «رنا» مُندهشة : أوراقَ الشَّجرِ
يا أمِّي ؟

قالت أمُّها : نعم يا «رنا» ، ومع ذلك كانوا
حامدين ربَّهم ، شاكرين له ما أنعم به عليهم .
قالت «رنا» : وأنا ساكلُ من هذا

الطَّعَامِ يَا أُمِّي ، عَلَى أَنْ تَحْكِيَ لِي قِصَّةَ
أَصْحَابِ الرَّسُولِ هَؤُلَاءِ .
قَالَتْ أُمُّهَا : لَقَدْ سُمِّيتُ هَذِهِ الْغَزْوَةُ
« غَزْوَةُ الْخَبْطِ » نِسْبَةً إِلَى أَوْرَاقِ الشَّجَرِ
تُنْفَضُ بِالْمَخَابِطِ الَّتِي أَكَلُوهَا ، وَكَانَ قَائِدُ
الْمُسْلِمِينَ فِيهَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ — عَامِرُ
بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجَرَّاحِ — وَقَدْ أَسْلَمَ أَبُو
عُبَيْدَةَ عَلَى يَدِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ فِي الْيَوْمِ
الْأَوَّلِيِّ لِلْإِسْلَامِ ، وَقَدْ قَاسَى — مِثْلَ كُلِّ مَنْ
أَسْلَمَ آنَذَاكَ — عَلَى يَدِ قُرَيْشٍ أَشَدَّ أَنْوَاعِ
الْعَذَابِ ، فَهَاجَرَ إِلَى الْحَبَشَةِ مَعَ مَنْ هَاجَرُوا
إِلَيْهَا فِي الْهَجْرَةِ الثَّانِيَةِ .

وبعد إسلام أهل المدينة ، وهجرة الرسول —
صلى الله عليه وسلم — إليها ، رجع أبو عبيدة إلى
المدينة وشارك في غزوة بدر ، ثم في غزوة أحد ،
وكان له في غزوة أحد موقف رائع يدل على
حبّه الشديد للنبي — صلى الله عليه وسلم —
وإخلاصه ووفائه ، هذا إلى جانب شجاعته
واقdamه الذين لا مثيل لهما . فقد عرف أبو عبيدة
أن هدف الكفار من قريش كان قتل النبي — صلى
الله عليه وسلم — للقضاء على الدين الجديد .
فجعل همه أن يكون دائما بجانب النبي — صلى
الله عليه وسلم — يضرب الكفار بسيفه ، وعينه
دائما على النبي .

رَأَى أَبُو عُبَيْدَةَ سَهْمًا يَنْطَلِقُ فَجَاءَهُ نَحْوُ
النَّبِيِّ ، وَرَأَى وَجْهَ النَّبِيِّ يَنْزِفُ دَمًا ، وَهُوَ
يَقُولُ : كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ
بَالِدَمٍ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ .

وَرَأَى أَبُو عُبَيْدَةَ حَلَقَتَيْنِ مِنَ الْمَغْفَرِ وَهُوَ دِرْعٌ
مِنَ الْحَدِيدِ يُلَبَسُ تَحْتَ غِطَاءِ الرَّأْسِ . دَخَلَتَا فِي
وَجَنَّتِي النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَصْرَّ
عَلَى أَنْ يَنْزِعَهُمَا بِنَفْسِهِ ، فَأَهْوَى عَلَيْهِمَا
يَنْزِعُهُمَا بِأَسْنَانِهِ ، وَكَانَ مَعَ كُلِّ حَلَقَةٍ
يَنْزِعُهَا ، تُكْسَرُ لَهُ سِنَّ ، وَعِنْدَمَا أَتَمَّ نَزْعَ
الْحَلَقَةِ الثَّانِيَةِ ، كَانَ قَدْ كُسِرَتْ لَهُ سِنَان .
وَأَصْبَحَ أَبُو عُبَيْدَةَ فِي النَّاسِ أَثَرَمَ .

سألت « رنا » : وكيف استطاع أن ينزع
الحديد بأسنانه ؟

قالت أمها : لقد زاده الموقف قوة إلى
قوته ، فلم يحتمل أن يرى الرسول الذى
يحبّه ، مُصاباً ينزف وجهه دماً وفى وجنتيه
الحلقتان .

* * *

وأرسله الرسول - صلى الله عليه وسلم -
- أميراً على ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً فى
غزوة ، ولم يكن معهم إلا جراب به تمر ،
وعلى الرّغم من السّفر الطّويل ، والمُهمّة
الصّعبة الّتى كلفهم بها الرسول - صلى الله
عليه وسلم - إلا أنّهم كانوا سعداء .

وكان نصيب كل فرد منهم بضع تمرات في اليوم ، وعندما أوشك التمر على الفراغ كان نصيب كل فرد ثمرة واحدة في اليوم .

فاستغربت « رنا » وقالت : ثمرة واحدة كل يوم : كيف كانت تكفيهم ؟ بل كيف يأكلون تمراً فقط ، ولا شيء غيره ؟ إن هذا مُمِلٌّ وصعب الاحتمال .

قالت أمها : ألم أقل لك يا « رنا » إنهم خرجوا في مهمة جليلة ، لا هم لهم إلا أن يتموها ، وما عدا ذلك فتفاهات أى أشياء لا قيمة لها لا تعنى عندهم شيئاً . ثم إن هذه الثمرة كانت نعمة من الله ، فبعد أن نفذ وفرغ التمر لم يجدوا شيئاً يأكلونه ، وكادوا يموتون من الجوع ، فى

صَحْرَاءَ قَاحِلَةٍ جَافَّةٍ لَا زَرْعَ فِيهَا يَأْكُلُونَهُ ،
وَلَا مَاءَ يَشْرَبُونَهُ .

سَأَلَتْ « رَنَا » : وَمَاذَا فَعَلُوا يَا أُمِّي ؟
قَالَتْ أُمُّهَا : لَمْ يَجِدُوا أَمَامَهُمْ إِلَّا أَوْرَاقَ
الشَّجَرِ الْجَافَّةِ ، فَمَا كَانَ مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ
طَحَنُوهَا وَأَكَلُوهَا ، وَشَرَبُوا عَلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ
الْقَلِيلِ الَّذِي مَعَهُمْ ، وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ هَذِهِ
الْغَزْوَةُ « غَزْوَةُ الْخَبْطِ » (أَيْ وَرَقِ الشَّجَرِ
يُنْفَضُ بِالْمَخَابِطِ) .

نَظَرَتْ « رَنَا » إِلَى الْمَائِدَةِ أَمَامَهَا ، وَرَأَتْ
مَا عَلَيْهَا مِنْ أَصْنَافِ الطَّعَامِ الْمُخْتَلِفَةِ .
فَقَالَتْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعْمَةِ الطَّعَامِ الَّذِي

أَجِدُّهُ أَمَامِي كُلَّمَا طَلَبْتُهُ . وَرَاحَتِ تَأْكُلُ بَيْنَهُمْ .

* * *

كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِذَا أُسْنِدَ إِلَيْهِ أَيْ عَمَلٌ ،
يُنْجِزُهُ عَلَى أَتَمِّ وَجْهِ ، حَتَّى أَطْلُقَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَمِينَ هَذِهِ الْأُمَّةُ .
وَحَدَّثَ أَنَّ جَاءَ وَفَدُ نَجْرَانٌ وَطَلَبُوا مِنَ النَّبِيِّ أَنْ
يُرْسِلَ مَعَهُمْ رَجُلًا يُعَلِّمُهُمْ تَعَالِيمَ دِينِهِمْ . فَقَالَ
لَهُمُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا بُعْثَنَّ
مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا ، حَقٌّ أَمِينٌ ، حَقٌّ أَمِينٌ ، حَقٌّ
أَمِينٌ .

وَتَطَّلَعَ الصَّحَابَةُ كُلُّهُمْ وَاشْتَاقُوا لِئَلَّا يَلِ هَذِهِ
الْمَكَانَةَ ، وَطَمَعُ كُلِّ مِنْهُمْ أَنْ يَكُونَ هُوَ الرَّسُولَ إِلَى

نجران ، ولكنها كانت من نصيب أبي عبيدة
بن الجراح ، أمين هذه الأمة .

ومثلما كان أبو عبيدة أميناً في عهد النبي
- صلى الله عليه وسلم - كان كذلك أميناً
في عهد أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب ،
فكان يقوم بكل عمل يسند إليه طائعاً مطيعاً ،
سواءً أكان العمل كبيراً أم صغيراً ، فهو لا يسعى
إلى دنيا يصيبها وينال خيرها ، بل كان كل ما
يهدف أي يقصد إليه رضا الله ، وأن يبعثه الله مع
الصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا .

* * *

عندما تولى الخلافة عمر بن الخطاب ،
بعث كتاباً بأن يتولى أبو عبيدة بن الجراح

قِيَادَةَ الْجَيْشِ فِي مَعْرَكَةِ الْقَادِسِيَّةِ ، مَكَانَ
خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ . فَتَكَّتُمْ أَبُو عُبَيْدَةَ الْخَبَرَ وَلَمْ
يُخْبِرْ بِهِ أَحَدًا ، فَالْمَعْرَكَةُ قَائِمَةٌ ، وَهُوَ لَا يُرِيدُ
أَنْ يَشْغَلَ الْجُنُودَ بِمَسْأَلَةِ تَغْيِيرِ الْقَائِدِ . فَانْتَظَرَ
حَتَّى انْتَهَتْ الْمَعْرَكَةُ ، وَتَمَّ النَّصْرُ لَخَالِدِ بْنِ
الْوَلِيدِ ، فَأُطْلِعَهُمْ عَلَى كِتَابِ الْخَلِيفَةِ ، وَكَانَ
لِتَكَّتُمْ أَبِي عُبَيْدَةَ الْخَبَرَ ، أَثَرٌ عَظِيمٌ فِي نَفُوسِ
الْمُسْلِمِينَ .

وَأَصْبَحَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ أَمِيرَ أُمَرَاءِ
الشَّامِ ، وَتَحْتَ يَدِهِ أَكْثَرُ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ
عَدَدًا وَعُدَّةً ، وَأَكْثَرُهَا عَظَمَةً وَقُوَّةً . فَافْتَنَّ
النَّاسُ بِعَظَمَتِهِ وَقُوَّتِهِ وَأَمَانَتِهِ ، فَجَمَعَهُمْ
جَمِيعًا وَخَطَبَ فِيهِمْ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا أَنَا إِلَّا

مُسْلِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَحْمَرُ
وَلَا أَسْوَدَ يَفْضُلُنِي بِتَقْوَى ، إِلَّا وَدِدْتُ أَنِّي
فِي إِهَابِهِ (أَيْ تَحْتَ سُلْطَانِهِ) .

قَالَتْ « رَنَا » : هَذِهِ الدَّرَجَةُ يَا أُمِّي
كَانَ مُتَوَاضِعًا ؟ فَهُوَ بَرَّغَمَ كُلِّ شَيْءٍ أَمِيرُ
أُمَرَاءِ الشَّامِ .

قَالَتْ أُمُّهَا : إِنَّهُمْ - كَمَا سَبَقَ أَنْ قُلْنَا - رِجَالٌ
اشْتَرَوْا آخِرَتَهُمْ بِدُنْيَاهُمْ . وَقَدْ ظَهَرَ هَذَا جَلِيًّا
وَاضِحًا عِنْدَمَا زَارَهُ الْخَلِيفَةُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي
بَيْتِهِ بِالشَّامِ ، فَرَأَاهُ بَيْتًا مُتَوَاضِعًا لَا يَحْتَوِي إِلَّا عَلَى
سَيْفِهِ وَتُرْسِهِ وَرَحْلِهِ أَيْ مَا يُجْعَلُ عَلَى ظَهْرِ الْبَعِيرِ .
فَسَأَلَهُ عُمَرُ : لِمَاذَا لَمْ تَتَّخِذْ لِنَفْسِكَ بَيْتًا
أَفْضَلَ ؟

فردّ عليه أبو عبيدة بقوله : يا أمير المؤمنين هذا
يُبلغني المقيّل ..

وَيَمُوتُ أَبُو عُبَيْدَةَ وَيُدفَنُ فِي الْأَرْدُنِّ ، فِي
الْأَرْضِ الَّتِي طَهَّرَهَا مِنْ وَثْنِيَةِ الْفُرسِ
وَاضْطَهَادِ الرُّومِ .

قالت « رنا » : إن قصّة أبي عبيدة
يا أمي قصّة جميلة ، مليئة بالحبّ والوفاء
والتّضحية .

فأجابتها أمّها : الأهمُّ من ذلك ، أن نتعلّم
منها أن نشكر الله على نعمه ، فنعم الله
كثيرة لا حصر لها ، وأبسطُ مثالٍ لذلك هذا
الطّعام الذي تتدمّر منهُ وترفضينه ، بينما

كثيرونَ غَيْرُكَ لَا يَجِدُونَ مِثْلَهُ ، أَوْ بَعْضًا مِنْهُ ،
لِيَسُدُّوا بِهِ جُوعَهُمْ .

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿ لَنْ شَكَرْتُمْ
لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾